كلمة د. وحيد عبد المجيد

فى الجلسة الثالثة:

مؤتمر الأمن فى خضم الانحلال

بيت المستقبل

تُعني هذه الجلسة بموضوع تكثر فيه التفاصيل بلا نهاية، لأنه يتعلق بدراسة حالات عدد من الدول العربية، وهي لبنان، والعراق، وسوريا، وبلدان الخليج. ودراسة الحالة، بطابعها, تقوم على تحليل يتطرق عادةً إلى تفاصيل أحداث ووقائع وتفاعلات وأنماط علاقات. وعندما يتعلق الأمر بوضع مضطرب أشد الاضطراب، في إطار نظام إقليمي تداعى على كل صعيد تقريباً، يتطلب الأمر وقتاً طويلاً لمناقشة كل من هذه الحالات بأبعادها المختلفة.

ولذلك نقدم هنا تحليلاً مركزاً للخطوط العامة للتحولات التي تحدث في البلدان التسعة المشمولة بهذه الجلسة بعيداً عن المؤثرات السياسية والفكرية السائدة في لحظة استقطاب عميق في المنطقة، ومن دون إصدار أحكام قيمية، واعتماداً على رؤية واقعية مفارقة بعيدة عن الأمنيات والأحلام أو التفكير الرغبوي Wishful Thinking ، انطلاقاً من انتمائي إلى الدراسة الواقعية في العلاقات الدولية Real Politics . وهذا هو الانحياز الوحيد الذي يتعين كشفه منذ البداية، لأن الموضوعية تتطلب إظهار أي انحياز حتى إذا كان منهجياً ومنبت الصلة بأية خلفية فكرية أو سياسية. ومن طبائع الأمور، في التحليل العلمي، أن ينطلق المحلل أو الباحث من منهج محدد يعتقد في سلامته، وملاءمته للموضوع الذي يسعى إلى تحليله.

وتأسيساً على ذلك، ننطلق في تحليل الحالات المدرجة في هذه الجلسة من سؤال "مفتاحي"، ندخل عبره إلى موضوعنا، ويتعلق بما حدث في المنطقة عموماً، وأثر على هذه البلدان، ونوع التأثير الذي حدث.

وإذا استعرنا بعض التعبيرات الجيولوجية، نقول إن عدة براكين انفجرت في بداية العقد الجاري، بعد أن سبقها زلزال كبير هز القوة الدولية التي كانت الأعظم في العالم في بداية العقد الماضي، وكانت ارتداداته في منطقتنا أكثر وأخطر منها في غيرها، ثم أعقبه زلزال في قلب جناحها الشرقي مازالت ارتداداته تفعل فعلها حتى اليوم.

انفجرت خمسة براكين في صورة ثورات وانتفاضات يسميها البعض، في مجال السجال السياسي الاستقطابي السائد، مؤامرات، ويفضل بعض آخر أن يطلق عليها حراكاً سياسياً. كان البركان الأشد انفجاراً في سوريا التي نتناولها ضمن الحالات المحددة في هذه الجلسة. ويا له من بركان رهيب مازال يقذف حممه في اتجاهات شتى حتى اليوم.

نفتح قوساً هنا لنقول، بعيداً عن السجالات الاستقطابية، أن البركان في المجتمع، كما في الطبيعة، يتكون نتيجة تراكم طويل، وينفجر عندما يصل هذا التراكم إلى نقطة معينة. ويحدث هذا التراكم بسبب عوامل داخلية في الأساس، وأهمها الاستبداد، والطغيان، وإهدار كرامة البشر، وإعادة إنتاج التخلف، واختزال الدولة الوطنية في سلطة قاهرة، تُختزل بدورها في شبكات مصالح يختلف طابعها ومكوناتها من حالة إلى أخرى. فالعوامل الداخلية هي التي تُحدث أي انفجار طبيعي كان أو سياسي – اجتماعي. وما الأدوار الخارجية، حين توجد، إلا عوامل مساعدة يتعذر أن تُحدث تأثيراً يُعتد به إلا إذا كانت الأوضاع الداخلية مهيأة للتأثر بها.

ولذلك كانت البراكين الخمسة (في تونس، ومصر، وسوريا، وليبيا، واليمن) ستنفجر لا محالة، سواء اندلعت ثورات بداية العقد الماضي وانتفاضاته أو لم تندلع. كانت علامات الانفجار موجودة قبل أن يحدث بسنوات. ولذلك كان حدوثه أمراً طبيعياً في ضوء المستوى الذي بلغه تراكم عوامله، في الوقت الذي حدث فيه، أو في وقت لاحق، وبالطريقة التي انفجر بها، أو بطريقة أخرى.

هذا عن البراكين التي انفجرت. أما الزلزالان اللذان حدثا في بداية العقد الماضي، وخلقا أجواء وتفاعلات دفعت باتجاه تسريع معدلات تراكم تلك البراكين، فكان

أولهما في الولايات المتحدة في سبتمبر ٢٠٠١، وثانيهما في العراق (يمكن النظر إلى الزلزال الثاني أيضاً بوصفه ارتداداً كبيراً ترتب على الأول). وكان إطلاق الصراع المذهبي والعرقي، أو بالأحرى إخراجه من تحت السطح الذي ظل يتفاعل تحته، أخطر ارتدادات هذا الزلزال، لأنه كان من القوة إلى الحد الذي انتشر في المنطقة، وامتد إلى بلدان أخرى من بينها سوريا، التي أصبح الوضع فيها الأكثر مأساوية في المنطقة حتى اليوم.

كما أصبح الصراع المذهبي مُحَّركاً رئيسياً لاستقطاب سياسي إقليمي صار هو المحور الرئيسي للتفاعلات في المنطقة، وأصبح بعض بلدان الخليج (السعودية ودولة الإمارات والبحرين) في صدارة أحد طرفي هذا الاستقطاب، الذي تتصدر إيران طرفه الثاني.

وغدت سوريا والعراق ساحتين أساسيتين لهذا الصراع – الاستقطاب الذي أحدث تحولاً كبيراً في أنماط التفاعلات في داخل البلدين. فقد تحولت الثورة – الانتفاضة – الحراك – "المؤامرة" في سوريا إلى صراع اجتماعي ممتد يُغذيه الاستقطاب الإقليمي، وتصب قوى دولية زيتاً على ناره طول الوقت في سعيها إلى تكريس نفوذها وتحقيق أكبر مقدار من مصالحها في المنطقة. كما تحول الصراع ضد الإرهاب، الذي تنامي في العراق بعد الحرب الأميركية عليه، إلى صراع اجتماعي ممتد أيضاً تتداخل فيه قوى إقليمية.

ومن سمات الصراع الاجتماعي الممتد أنه يستمر لفترات طويلة، ويعيد إنتاج نفسه في صور متعددة من وقت إلى آخر، ولذلك يُعد أكثر أنواع الصراعات صعوبة في حله أو تسويته، إذ يتطلب الخروج منه إما إنهاك الأطراف المتصارعة إلى حد يجعل خسائر استمرارها في الصراع أكبر بكثير من أي مكاسب تحققها، أو تعقلها وإدراكها أن أياً منها لن يستطيع القضاء على الآخر، أو استئصاله، وأن على الجميع أن يجدوا صيغة للتعايش.

وبرغم أن بلدان الخليج التي تتصدر الأطراف العربية المنخرطة في الاستقطاب الإقليمي تبدو للوهلة الأولى مؤثرة في مصير بلدان أخرى في المنطقة، مثلها في ذلك مثل إيران، فهي بدورها مأزومة لأن ارتدادات زلزال العقد الماضي، وحجم براكين بداية العقد الجاري، أصابتها هي الأخرى.

ويمكن أن نصنف بلدان الخليج الستة في أربع فئات: الأولى تشمل بلدين سعى كل منهما إلى وضع حد لتأثره بالحمم التي قذفتها البراكين، وارتدادات الزلزالين اللذين سبقاها، واختارتا النأي بنفسهما عن الاستقطاب الإقليمي، ونجحتا في ذلك إلى حد معقول.

وفي الفئة الثانية بلد طالته حمم البراكين، وانفجر فيه الصراع المذهبي الذي كان كامناً تحت السطح، ولم يتيسر إنهاء الاحتجاجات التي حدثت فيه إلا بعد تدخل "قوات درع الجزيرة" التابعة لمجلس التعاون الخليجي. ولكن انتهاء الاحتجاجات لم يُنه الصراع الذي أُعيد, مثلما كان من قبل، تحت السطح.

وفي الفئة الثالثة بلد سعي إلى استغلال انفجار البراكين لمصلحته، وراهن نظام الحكم فيه على صعود تيارات الإسلام السياسي الذي كان قريباً منه منذ منتصف تسعينات القرن الماضي، وانتهى الأمر به إلى عزله عن معظم محيطه الإقليمي العربي، وصدام مع خصوم تلك التيارات حكومات كانوا أو أحزاباً أو فئات اجتماعية في بعض البلدان.

وتضم الفئة الرابعة البلدين الباقيين من بلدان مجلس التعاون الخليجي، واللذين لعبا دوراً مهماً في إخماد البراكين لكي لا تؤدى إلى تغيير في البلدان التي اندلعت فيها، بعد أن قفزت بتيارات الإسلام السياسي إلى صدارة الثورات والانتفاضات التي أحدثتها الانفجارات البركانية. ولكن أحدهما سلك في سورية سلوكاً مختلفاً، وأسهم في دعم بعض أطراف المعارضة المسلحة، في إطار سعيه إلى خلق توازن مع دور بلد خليجي ثان دعم أطرافاً أخرى في هذه المعارضة.

وبرغم النجاح الذي حققه البلدان اللذان عملا على إخماد البراكين في أربعة بلدان من الخمسة التي حدثت الانفجارات فيها، فقد انغمسا في حرب طويلة في اليمن، وتحول نزاعهما مع إيران إلى صراع مكشوف متصاعد وممتد، وأصبح هو الصراع الإقليمي الرئيسي. ويسعى كل منهما إلى زيادة نفوذه اعتماداً على موارده، وعلى توثيق العلاقات مع الولايات المتحدة، الأمر الذي استدعى إطلاق تغيير ثقافي – اجتماعي في أحدهما سعياً إلى تغيير صورته، والقيام بعملية "نيولوك" تُحدث تغييراً في الشكل وتفيد في دعم حملة "علاقات عامة" في الأوساط الغربية، وتخلق شرعية لقيادة من جيل جديد، أو هكذا تتصور هذه القيادة التي تراهن على شبان وشابات سأموا الانغلاق والحرمان من مظاهر الحياة الحديثة.

وهكذا لم يتمكن أي من البلدان المشمولة بهذه الحالة من الإفلات من حمم البراكين التي انفجرت. ولذلك ربما تبدو المفارقة، في هذا كله، أن لبنان هو الأقل تأثراً بهذه البراكين، رغم أنه كان أحد البلدان الأكثر تأثراً بارتدادات زلزالي ٢٠٠١، و٢٠٠٣، وتوابعهما.

ويمكن تفسير محدودية تأثر لبنان بالانفجارات البركانية رغم هشاشة وضعه الداخلي، وانفجار البركان الأقوى بجواره وعلى حدوده، بـ"المناعة" التي اكتسبها من تجربة الحرب الأهلية التي استمرت نحو ١٥ عاماً من منتصف السبعينات إلى نهاية ثمانينات القرن الماضي. جرب اللبنانيون الحرب الأهلية واكتووا بنيرانها، وخبروا آثارها، وعرفوا أنها لا طائل من ورائها، فاكتسب قادة تياراتهم وأحزابهم الخبرة اللازمة للعمل على عدم تكرارها، والحيلولة دون تراكم عوامل تؤدي إلى إعادة إنتاجها، وحرصوا على التعايش رغم الخلافات التي تفصل بينهم.

إنها حكمة التجربة المؤلمة تلك التي تفسر قدرة القادة اللبنانيين بمختلف اتجاهاتهم على تجنب امتداد النيران التي أكلت الأخضر واليابس في سورية المجاورة إلى بلدهم، الذي تمكن فى الوقت نفسه من أداء دور سيسجله التاريخ عندما استقبل أكثر من مليون نازح سوري هربوا من القتل والخراب، رغم ظروفه الاقتصادية الصعبة.

ولذلك يبدو لبنان نقطة مضيئة بشكل ما في محيطه، مع ملاحظة أن المقارنة هنا نسبية.

وربما يتيح هذا التفسير لحالة لبنان مدخلاً لنظرة أوسع على مستقبل الحالات المشمولة بهذه الجلسة. فهذا تفسير مستمد من قراءة تاريخية لحركية (ديناميكية) الصراعات الاجتماعية الممتدة التي تستمر لفترات طويلة، كما سبقت الإشارة، ولا تنتهي بانتصار نهائي لأحد أطرافها إلا فيما ندر لصعوبة قياس النصر والهزيمة في معاركها التي تنخرط فيها عادةً قوى ومنظمات أهلية مسلحة war state actors، بخلاف الحروب التقليدية التي تنشب بين جيوش نظامية.

ولذلك لن ينتهي الصراعان الممتدان في سوريا والعراق، كما في اليمن وليبيا، إلا بإنهاك تام لأطرافهما، أو بإدراك هذه الأطراف أن أيا منها لن يتمكن من تحقيق نصر كامل ونهائي وفرض الاستسلام على الطرف أو الأطراف الأخرى.

وإذا صح هذا التفسير، فهو يعني أن أخطر صراعات المنطقة ستظل مستمرة لسنوات طويلة، وأن انحلال النظام الإقليمي سيزداد، وأن هذا هو الواقع المؤلم الذي يتعين علينا السعي إلى فهمه كما هو بدون تزيين، والتعاطي معه وفق منهج إدارة تلك الصراعات بطرق تؤدي إلى تقليل الخسائر المترتبة عليها، والحد من التدهور المقترن بها، أو وقفه عند مستوى أقل إذا أمكن.

إدارة الصراعات بهذه الطريقة هي ما ننصح بالتركيز عليه، لأن الاعتقاد في إمكان التوصل إلى حلول لها في وقت قريب يؤدى إلى تبديد الجهود فيما لا طائل من ورائه، في الوقت الذي يحسن توجيه هذه الجهود إلى ما يفيد. ونختم بمثال توضيحي بشأن المقصود بإدارة الأزمة في حالة مثل سوريا، التي يتعين البحث بشكل فوري عن سبل لإعادة أعداد متزايدة من النازحين إلى لبنان والأردن إليها تدريجياً بدون انتظار حل أزمتها التي ستستمر لوقت طويل.